رؤى المنتدى: كيف يمكننا دعم المعلمين لتغيير طريقة تفكيرهم؟

12 تموز / يوليو 2023

إن أنماط التعليم والتعلّم التقليدية المتجذرة في العصر الصناعي لم ولن تتمكن من إعداد وتهيئة أطفال الجيل الحالي لمواجهة التغيّرات المستقبلية والتحديات القادمة. حيث يسعى العالم الآن إلى جعل الطلبة متعاونين وواعين ومبدعين وقادرين على حل المشكلات من خلال التفكير النقدي، إلا أننا ما زلنا نرى نماذج حول العالم تُعيق تفعيل هذه المهارات في عملية التعليم والتعلّم بدلًا من تعزيزها.

وعلى الرغم من ذلك، يوجد أملٌ حقيقي لإحداث هذا التغيير. إذ تكشف دراساتنا الشاملة للصفوف المدرسية التحويلية حول العالم عن خطة ديناميكية فعّالة للتعليم والتعلّم، حيث يتعلّم المعلمون والطلبة ويتطوّرون معًا، مما يؤدي إلى تعزيز السلامة العامة والترابط والوعي والإرادة الحرّة والإتقان.

ومن بين الجوانب الأكثر أهمية لهذه الخطة الناشئة للتعليم التحويلي، الأدوار المحورية لطريقة تفكير المعلمين ووجهات نظرهم ومنظورهم: فمن خلال التزامنا بتنشئة الطلبة ليصبحوا قادة، سيؤدي ذلك بالضرورة إلى تغيير وجهات نظرنا وطريقة تفكيرنا، مما سيؤدي إلى إحداث تغيير في أفعالنا وتصرّفاتنا.

تتشكّل طريقة تفكيرنا من خلال التجارب التي نخوضها ومن نظرتنا إلى العالم. فهي مزيج من معتقداتنا وقيمنا وافتراضاتنا حول الطريقة التي يسير بها العالم والتي اكتسبناها من خلال التجارب المختلفة التي خضناها طوال حياتنا. وغالبًا ما نكون غير مدركين لطريقة تفكيرنا، غير أنها تُعدّ من العوامل الرئيسية المؤثرة على تصرّفاتنا وسلوكياتنا. لذا، ولنتمكّن من إحداث تغيير دائم في السلوكيات، من الضروري تغيير طريقة التفكير التي تدعم هذه السلوكيات.

وفيما يلي ملخص للأفكار المهمة التي جمعناها فيما يتعلق بطرق التفكير التي لاحظنا ارتباطها بالتعليم التحويلي والكيفية التي يمكن من خلالها دعم المعلمين لتبنّيها:

1. اكتشفنا أنماطًا واضحة للطرق التي ينظر بها المعلمون التحويليون إلى طلبتهم وإلى دورهم التعليمي وإلى مجتمعاتهم والتحديات التي تواجهنا جميعًا

من خلال دراساتنا الشاملة للصفوف المدرسية النموذجية داخل الشبكة، وجدنا أن هؤلاء المعلمين يمتلكون طريقة تفكير و"ومنظور" مشترك. إذ ينظر هؤلاء المعلمون إلى:

- الطلبة بصفتهم قادة: ينظرون إلى طلبتهم على أنهم أفراد أكفاء وأذكياء لديهم القدرة على تشكيل حياتهم والعالم من حولهم، وليس مجرد "متلقّين" غير فاعلين، يتم تلقينهم بالمعرفة.
- المعلمين بصفتهم متعلّمين: يعتبرون أنفسهم متعلمين مدى الحياة، ويستجيبون للتحديات بفضول وتواضع وإبداع، بدلًا من اعتبار أنفسهم المصدر الوحيد للمعرفة والمهارات التي يحتاجها الطلبة.
- المجتمع باعتباره مصدر قوة: ينظرون إلى المجتمعات على أنها مصادر للقوة والحكمة ويدركون أن التغيير الدائم يتطلب تعاونًا حقيقيًا مع الطلبة والأسر والمعلمين الآخرين، بدلًا من اعتبار المجتمعات مكانًا تملؤه التحديات والمصاعب والاحتياجات التي لم تتم تلبيتها.
- عملهم باعتباره عملًا منهجيًا: ينظرون إلى عملهم على أنه يتحدى الأسباب الجذرية لأشكال عدم المساواة التي تثبط إمكانات الطلبة—الحواجز المنهجية من حولهم التي تُفقدهم إيمانهم بأنفسهم، بدلًا من إجبار الطلبة على بذل المزيد من الجهود للتكيّف مع أشكال عدم المساواة من حولهم.

لقد خلُصت دراساتنا إلى أنّ "تغيير المنظور" (والذي نطلق عليه أحيانًا "التخلّي عن طرق التفكير المتأصّلة") يُعد أمرًا في غاية الأهمية عندما يتعلق الأمر بمجموعة المعتقدات والقيم والافتراضات التي نسميها عادةً "طرق التفكير": والتي تتضمن التطلّعات الكبيرة وعقلية النمو والإحساس القوي بالسيطرة، إلخ.

2. تُمكّن التغيّرات في طريقة التفكير ووجهات النظر والمنظور من تبنّي أنماط مختلفة في الممارسات اليومية داخل الصفوف المدرسية

إن هذه التغيّرات في المنظور وطرق التفكير تساعد المعلمين في مواجهة التحديات المعقدّة والديناميكية المرتبطة بالعملية التعليمية، فهي تمكّنهم من تحديد التناقضات بين الأهداف والسلوكيات وإبراز الافتراضات التي قد نكوّنها عن طلبتنا وأنفسنا ومجتمعنا وأعمالنا دون وعي منّا:

- يمكن للمعلمة التي تنظر إلى الطلبة بصفتهم قادة أن تقوم على سبيل المثال بترتيب بيئة الصف المدرسي لتسهيل المناقشات التفاعلية، بحيث يتعلّم الطلبة من بعضهم البعض، بدلًا من اعتبار نفسها الشخص الوحيد الذي يمتلك الخبرة (على الرغم من أن هذا الإجراء الذي تطبّقه المعلمة لم يكن معتمدًا في أي من نماذج تقييم المعلمين السابقة).
- قد يقوم المعلّم الذي يعتبر نفسه متعلّمًا مثلًا بإيقاف الحصة الدراسية التي لا تسير بشكلٍ جيد ومناقشة أوجه القصور في حصته الدراسية مع الطلبة ونمذجة مفهوم القيادة الذي يسعى إلى غرسه في الطلبة (على الرغم من أن هذا الإجراء لم يتم التطرّق إليه في التدريب الذي تلقّاه).
- قد تقوم المعلمة التي تنظر إلى المجتمعات باعتبارها مصدر قوة مثلًا بإشراك أولياء الأمور بشكل فعّال في تشكيل رؤية للطلبة، بدلًا من قيامها بذلك بشكلٍ فردي (على الرغم من أن المساقات الجامعية التي قامت بدراستها تشير إلى أنّ عليها تحديد أهداف الصف المدرسي بمفردها).
- قد تلجأ المعلمة التي تنظر إلى عملها باعتباره عملًا منهجيًا، على سبيل المثال إلى التعمق أكثر في البيئة المنزلية للطفل بدلًا من التسرّع في الاستنتاج عند التعامل مع طالب فوضوي (على الرغم من أن بعض زميلاتها المعلمات يتسرّعن في تكوين استنتاجات حول الإمكانات الأكاديمية الكامنة لدى الطفل والتي تؤثر على نجاحه في المدرسة).

3. يمكن لبرامج تطوير المعلمين أن تكون موجّهة نحو تغيير طريقة التفكير

في بعض الأحيان، ينطوي التحسين بالنسبة للمعلّم على ممارسة مهارات ونشاطات جديدة. ومع ذلك، غالبًا ما تظهر الإمكانات الحقيقية لتطوير مهارات جديدة من التجارب المربكة والممارسات التأملية التي تؤدي إلى إحداث تغييرات في طرق تفكيرنا ووجهات نظرنا فيما يتعلق بطلبتنا وأنفسنا ومجتمعاتنا وعملنا.

ومن أجل دعم المعلمين في تغيير طرق تفكيرهم، علينا مساعدتهم على الآتي:

- توسيع نطاق وجهات النظر: بما أن طرق تفكيرنا تتشكل من خلال تجاربنا، يصبح من الضروري خوض تجارب جديدة من أجل تطوير طرق تفكير جديدة. ويمكن أن يشمل ذلك القيام بتجارب جديدة (مثل زيارة أماكن غير مألوفة)، ويمكن أن ينطوي أيضًا على القراءة حول منهجيات جديدة أو مختلفة أو الاستماع إلى تجارب أو معتقدات أخرى من وجهات نظر مختلفة. وغالبًا ما يشار إلى هذه التجارب على أنها "تجارب مربكة" لأنها تتحدى وجهات نظرنا السابقة وتغيّرها وتؤدي إلى الشعور بالارتباك و/أو عدم الراحة.
- التأمل في الأفكار الجديدة: من المهم الجمع بين توسيع نطاق وجهات النظر وتخصيص وقت كافٍ للتأمل وإيجاد المعنى. فبدون التأمل، قد تفوتنا فرصة تحليل واستيعاب كيفية توافق الأفكار الجديدة مع أفكارنا الحالية، وتحديد ما إذا كان يتعين علينا إعادة تقييم وجهات نظرنا نتيجة لذلك.
- تحويل اللاوعي إلى الوعي: لتغيير طريقة التفكير، من الضروري تسليط الضوء على الأفكار التي نمتلكها حاليًا. يمكن أن يساعد استخدام الأسئلة التأملية في الكشف عن طرق التفكير اللاواعية.
- استكشاف طرق التفكير الحالية: بمجرد أن يتم تحديد طريقة تفكيرنا الحالية، سيكون من الجيد النظر في التجارب التي ساهمت في تكوينها وتقييم مدى فاعليتها أو فائدتها بالنسبة لنا.
- صياغة طرق تفكير جديدة: يُعتبر التعبير بوضوح عن طرق تفكيرنا الجديدة (أو الناشئة أو المتطوّرة) بنفس أهمية الكشف عن طرق تفكيرنا اللاواعية. وكما هو الحال في التفكير التأملي، فإن تهميش الحاجة إلى التعبير عن طرق تفكيرنا الجديدة، قد يتسبب في بقاء هذه الأفكار غير واضحة في أذهاننا وبالتالي، تقل احتمالية قيامنا بسلوكيات أو تصرّفات جديدة. قد يتضمن ذلك القيام بتدوينها أو التحدّث عنها بحيث نعبّر عن هذه الأفكار الجديدة بالكلمات.
- ممارسة الأفكار الجديدة وتعزيزها: إنّ طريقة تفكيرنا تتطور بناءً على تجاربنا التي نخوضها في العالم الحقيقي. فغالبًا ما يتم تكوين وتعزيز طرق التفكير التي نتمسك بها كبالغين على مدى عقودٍ من التجارب. عند تكوين الأفكار والمعتقدات الجديدة من خلال خوض تجارب جديدة، سنميل إلى العودة لطرقنا السابقة والمتجذرة في رؤية هذا العالم، ما لم نمارس هذه الأفكار الجديدة ونتطرّق لها باستمرار. غالبًا ما يتطلب الاستيعاب العميق لطرق التفكير الجديدة إيجاد أنظمة جديدة من شأنها تعزيز أفكارنا الجديدة، كإيجاد مجموعات أقران جديدة أو وسائل اجتماعية جديدة أو وسائط أخرى أو مؤثرات خارجية أخرى من شأنها أن تساعد في مجابهة طرقنا القديمة في التفكير ودعم أفكارنا المطورة حديثًا.

تتطلب خبرات التعلّم الفعّال التي تؤدي إلى إحداث تغييرات في طرق التفكير وجود عدة عناصر رئيسية: الوقت الكافي والثقة والعلاقات الهادفة والمساحة المخصّصة للتأمل في الممارسات والأهداف الواضحة وتكرار الممارسات لفترات طويلة.

ينبغي أن يتّسم الميسرون بصفات تتضمن عدم إصدار الأحكام وحب المعرفة والاهتمام/التعاطف والشجاعة، ليتمكّنوا من إيجاد مساحة داعمة يستطيع من خلالها المعلمون تغيير طريقة تفكيرهم.

لمعرفة المزيد

لاستكشاف الطرق التي تتغير بها سلوكياتنا وتصرّفاتنا نتيجة لتغيّر منظورنا بمزيد من التعمّق - ولإيجاد أدوات التأمّل التي تساعد في تغيير منظورنا - يرجى الاطّلاع على فصل "المنظورات" في الكتاب الإلكتروني "إطار التعليم باعتباره قيادة جماعية"، الذي يناقش كل منظور في صفحتيْن.